

المحاضرة العاشرة

أشهر أعلام نظرية المعرفة (ابن سينا وابن عربي)

◆ ابن سينا

- الموقف الفلسفي لابن سينا
- نظريته في المعرفة
- تصنيفه للعلوم
- فروع الحكمة

◆ ابن عربي

- فلسفة ابن عربي
- المعرفة عند ابن عربي
- مراتب العلوم
- صعوبة تحديد معاني كلامه

◆ الموقف الفلسفي لابن سينا:

الملاحظة الأساسية التي تكاد تكون محل اتفاق بين دارسي ابن سينا هي ازدواجية الموقف الفلسفي عنده، أو تعدد المستوى الفلسفي السينوي؛ فهناك على ما يصرح به ابن سينا نفسه فلسفة مشائية للجمهور، وفلسفة مشرقية للخاصة. والاتجاه المشائي هو الشائع عن ابن سينا خاصة عند المتأثرين به في الغرب، والممثل له من مؤلفاته هو (الشفاء) بصفة عامة، أما الاتجاه المشرقي فالمقصود به عند ابن سينا ما زال محل خلاف بين الباحثين.

ونظرية المعرفة كما هو معروف مبنية على الموقف الفلسفي، ومع ازدواجية الموقف الفلسفي السينوي بين المشائية التي يخاطب بها الجمهور، والمشرقية التي يخاطب بها الخاصة فسنجد بالضرورة وبناء على ذلك موقفين معرفيين مزدوجين أحدهما مبنى على المشائية، والآخر مبنى على المشرقية.

وإذا كان منهج التصنيف في العلم، ومنهج تصنيف العلوم على صلة وثيقة بنظرية المعرفة، فإننا نلاحظ هذه الازدواجية في موقف ابن سينا الفلسفي، والتي يبنى عليها ازدواجية في آثارها في تصنيف العلوم، وفي منهج التصنيف الفلسفي.

◆ نظريته في المعرفة

- لابن سينا نظرية متكاملة في الوجود والمعرفة بأنواعها الحسية والعقلية، غير أنه انتهى به الأمر إلى إدراك محدودية هذه الوسائل لمعرفة الوجود، وأنها لا يمكنها الاستقلال في إدراك الوجود ومعرفته،

- يقول ابن سينا: ((... فيقي أن هاهنا شيئاً خارجاً عن جوهرنا فيه الصور المعقولة بالذات، إذ هو جوهر عقلي بالفعل، إذا وقع بين نفوسنا وبينه اتصال ما، ارتسم منه فيها الصور العقلية الخاصة بذلك الاستعداد الخاص لأحكام خاصة، وإذا أعرضت النفس عنه إلى ما يلي العالم الجسداني أو إلى أي صورة أخرى انمحي المتمثل الذي كان أو لا كان المرآة التي كانت تحاذي بها جانب القدس قد أعرض بها عنه إلى جانب الحس أو إلى شيء آخر من الأمور القدسية، وهذا إنما يكون إذا اكتسبت نفوسنا هذا الاتصال))

- فنظرية المعرفة عند ابن سينا مرتبطة بقوة النفس عنده والتي يرى أنها الحواس والعقل والحس، ومن ثم فالمعرفة تنقسم عنده إلى المعرفة الحسية والعقلية والحسية

- والمعرفة الحسية مكتسبة بسلوك طريق خاص، هو طريق المجاهدة والتصفية والذي ينتهي بالاتصال ثم التلقي، كل حسب استعداده. فالمعرفة الإشرافية مرتبطة بالاستعداد،

- وهناك مراتب ثلاثة مستعدة لهذه المعرفة بحسب نظرية ابن سينا: الزاهد والعايد والعارف، وقد تناول كل ذلك بالتفصيل في الأنماط الثلاثة الأخيرة من إشارات: الثامن والتاسع والعاشر من كتاب (الإشارات والتنبيهات).

إن بالإضافة الحقيقية عند ابن سينا في نظرية المعرفة هو محاولة التنظير العقلي للمعرفة الحسية.

◆ تصنيف العلوم عند ابن سينا:

- ينطلق تصنيف ابن سينا للعلوم من مفهومه للوجود، فالوجود عنده إما عقلي مفارق، وهو موضوع ما بعد الطبيعة، وإما مادي محسوس وهو موضوع الطبيعة، وإما ذهني متصور وهو موضوع المنطق،

- وموضوع الطبيعة لا يوجد ولا يمكن أن يتصور وجوده بريئاً عن المادة، وأما موضوع ما بعد الطبيعة فلا تخالطه المادة أصلاً، وموضوع المنطق منتزَع من المادة بطريق التجريد

- هذا الأساس في التصنيف سيؤثر مباشرة في منهج التصنيف عنده حيث ستكون بدايته في مصنفته - بعد المدخل المنطقي - هو العلم الطبيعي، مع ملاحظة أن المدخل المنطقي هو عنده في جميع كتبه (كالشفاء والنجاة والإشارات) يبدأ به لكونه آلة تعصم الذهن عن الخطأ.

- وبناء على أساس التصنيف هذا يقسم ابن سينا في رسالة (أقسام العلوم العقلية) الحكمة إلى قسم نظري مجرد وقسم عملي، والقسم النظري هو الذي الغاية فيه حصول الاعتقاد اليقيني بحال الموجودات التي لا يتعلق وجودها بفعل الإنسان، ويكون المقصود إنما هو حصول رأى فقط مثل علم التوحيد وعلم الهيئة.

- والقسم العملي هو الذي ليس الغاية فيه حصول الاعتقاد اليقيني بالموجودات، بل ربما يكون المقصود فيه حصول صحة رأى في أمر يحصل بكسب الإنسان ليكتسب ما هو الخير منه، فلا يكون المقصود حصول رأى فقط، بل حصول رأى لأجل عمل، فغاية النظري هو الحق، وغاية العملي هو الخير

- أما أقسام الحكمة النظرية ثلاثة: العلم الأسفل ويسمى العلم الطبيعي، والعلم الأوسط ويسمى العلم الرياضي، والعلم الأعلى ويسمى العلم الإلهي.

- فالعلوم النظرية أقسام ثلاثة: العلم الخاص بالقسم الأول يسمى طبيعياً، والعلم الخاص بالقسم الثاني يسمى رياضياً والعلم الخاص بالقسم الثالث يسمى إلهياً.

- أما أقسام الحكمة العملية عند ابن سينا فتلاثة، القسم الأول، ويعرف به أن الإنسان كيف ينبغي أن تكون أخلاقه وأفعاله حتى تكون حياته الأولى والأخرى سعيدة،

- والقسم الثاني ويعرف منه أن الإنسان كيف ينبغي أن يكون تدبيره لمنزله المشترك بينه وبين زوجه وولده ومملوكه حتى تكون حاله منتظمة مؤدية إلى التمكن من كسب السعادة،

- والقسم الثالث، ويعرف به أصناف السياسات والرياسات والاجتماعات المدنية الفاضلة والرديئة، ويعرف وجه استيفاء كل واحد منها وعلّة زواله وجهة انتقاله، ما كان يتعلّق من ذلك بالملك. وما كان من ذلك يتعلّق بالنبوة والشريعة. وهذا الجزء من الحكمة العملية يعرف به وجود النبوة وحاجة نوع الإنسان في وجوده وبقائه ومنقلبه إلى الشريعة.

- ثم أخذ ابن سينا بعد ذلك في بيان أقسام علوم الحكمة الطبيعية، والرياضية والإلهية والمنطقية في بقية رسالته، مؤكداً في النهاية على أن جملة العلوم المعقولة المضبوطة في هذه الرسالة العظيمة ثلاثة وخمسون علماً.

❖ فروع الحكمة

ويعلق الشيخ مصطفى عبد الرزاق بقوله: ولم يبلغ أحد علمناه قبل ابن سينا بالعلوم العقلية أو العلوم الفلسفية هذا العدد، وقد جعل المنطق آلة للعلوم العقلية أو الفلسفة بسميها النظري والعملي، ثم أسماه مع ذلك حكمة، وذكر في فروع العلم الإلهي: علم الوحي وعلم المعاد.

ويقول ابن سينا في عيون الحكمة: ((الحكمة استكمال النفس الإنسانية بتصور الأمور والتصديق بها بالحقائق النظرية والعملية على قدر الطاقة الإنسانية. والحكمة المتعلقة بالأمور التي إلينا أن نعلمها وليس إلينا أن نعملها تسمى حكمة نظرية والحكمة المتعلقة بالأمور العملية التي إلينا أن نعلمها ونعملها تسمى حكمة عملية. وكل واحدة من الحكمتين تنحصر في أقسام ثلاثة: فأقسام الحكمة العملية: حكمة مدنية، وحكمة منزلية، وحكمة خلقية. ومبدأ هذه الثلاثة مستفاد من جهة الشريعة الإلهية، وكمالات حدودها تستبين بالشريعة الإلهية، وتتصرف فيها بعد ذلك القوة النظرية من البشر بمعرفة القوانين العملية منهم وباستعمال تلك القوانين في الجزئيات.

- فالحكمة المدنية فائدتها أن تعلم كيفية المشاركة التي تقع فيها بين أشخاص الناس ليتعاونوا على مصالح الأبدان، ومصالح بقاء نوع الإنسان.

- والحكمة المنزلية فائدتها: أن تعلم المشاركة التي ينبغي أن تكون بين أهل منزل واحد لتتنظم به المصلحة المنزلية، والمشاركة المنزلية تتم بين زوج وزوجة، ووالد ومولود، ومالك وعبد.

- وأما الحكمة الخلقية فائدتها أن تعلم الفضائل وكيفية اقتنائها لتزكو بها النفس، وتعلم الرذائل وكيفية توقيها، لتظهر عنها النفس.

- وأما الحكمة النظرية فأقسامها ثلاثة: حكمة طبيعية. وحكمة رياضية، وحكمة هي الفلسفة الأولية، والفلسفة الإلهية جزء منها، وهي معرفة الربوبية،

- ومبادئ هذه الأقسام التي (للحكمة النظرية مستفادة من أرباب الملة الإلهية على سبيل التنبيه، ومتصرف على تحصيلها بالكمال والقوة العقلية على سبيل الحجة، ومن أوتى استكمال نفسه بهاتين الحكمتين والعمل على ذلك بإحداهما فقد أوتى خيراً كثيراً).

❖ ابن عربي

فلسفة ابن عربي:

- ابن عربي فيلسوف كبقية الفلاسفة الإسلاميين، تكلم في الكون وفي مبدئه وفي صدوره، وتكلم في الإنسان وفي غايته من هذه الحياة، وفي علاقته بموجده، وفي السبيل إلى تحديد هذه العلاقة، ولم يخرج في جوهر ما قال عن الأفلاطونية الحديثة، والأفلاطونية الحديثة مصدر الفلسفة الإشرافية في الثقافة الإسلامية، ومصدر كبير للتصوف الإسلامي القائم على الإلهام في المعرفة، والفناء في ذات الله ونبذ متع هذه الحياة. ولكن ميزة ابن عربي عن الفلاسفة الإسلاميين الآخرين، أمثال: الكندي، والفارابي وابن سينا، أو غيرهم، في تصوير هذه الفكرة الفلسفية، فلم يشأ أن يحكيها أو أن يشرحها بعباراتها الاصطلاحية، بل عرضها بأسلوب يكثر فيه التمثيل الشعري الرمزي.

- وشخصية ابن عربي واضحة وغامضة؟ واضحة في تمثيلها ثقافة عصره، وغامضة في أنها لم تبرز صريح رأيه ومعتقده، وأغلب الظن أن هذا الغموض مرجعه شغف ابن عربي باستخدام (القصة) في الفلسفة، والخيال في التعبير

عن الفكر، وإن كان هو يعقله بقوله: (ليس في مستطاع أهل المعرفة أوصول شعورهم إلى غيرهم، وغاية ما في هذا المستطاع الرمز عن تلك الظواهر لألئك الذين أخذوا في ممارستها).

❖ المعرفة عند ابن عربي:

يتنازع المعرفة اتجاهان أو نهجان: الأول هو النظر العقلي، والثاني هو الكشف الصوفي، وعليه فإن مفهوم المعرفة يجب أن ينظر إليه ليس بوصف ابن عربي متصوفاً يسلك طرق الكشف وحسب، بل بوصفه فيلسوفاً يلجأ إلى النظر العقلي كذلك

ونظرية المعرفة عند ابن عربي تميز بين نوعين من المعرفة: تلك التي تنتمي للعقل، والأخرى العائدة للنفس، أي المعرفة الذوقية والتأكيد على حدسها، المحدد الأساس في المعرفة عند ابن عربي، بفهم الإيمان بمعرفة تتعد عن السبب الاستطرادي، وتقترب من الإدراك المباشر للحقيقة في جوهرها.

إن ارتباط المصطلح بلفظ «ذوق» يشير إلى نوع من الحكمة، تعتمد التجربة المباشرة ذات الإدراك الفطري. وهو ما يتحدد بما يسمى الكشف الذوقي، فالعقل مكتسب، في حين أن الذوق موضوعه الحقيقة ذاتها، وبالتالي، لا مفر من اللجوء إلى الذوق باعتباره الوسيلة الوحيدة للحصول على المعرفة عبر: الشهود المباشر للحقائق.

- وعلى هذا النحو نرى ابن عربي وقد تعامل مع القلب كأداة تثبت من خلالها «المعرفة الذوقية»، وهي بمعنى آخر البؤرة التي تتجلى فيها المعرفة. والمواقف التي صاغها الصوفية عن القلب بمجملها متأثرة بالأحاديث المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم والتي تتوزع على مستويين محددين: الأول اعتبار القلب بؤرة للمعرفة، والثاني: التأكيد على تغيرية وحركية القلب. ومن خلال الموقف القرآني، الذي اتخذ من القلب محلاً للكشف والإلهام، فإن الصوفية الأوائل قد حددوا القلب: بالمشاهدة، والفهم عن الله.

- وإن الصراع المتمثل بين ما هو إيجابي وما هو سلبي طبقاً لهذا التقسيم راجع إلى وقوع النفس بين الروح والعقل من جهة، وبين الجسم المادي من جهة أخرى، وبهذا الفهم فإن اهتمام النفس بما هو ظاهري يؤدي إلى تكديس الحجب على القلب، أو زيادة صدئه.

- لذا فإن الظاهر يتضمن الأسباب والأغيار والأشياء، ويتركز رحيل العارف من الأسباب إلى المسبب، ومن السوى إليه هو، ومن الأشياء إلى رب الأشياء.

- ارتبط الظاهر عند ابن عربي بمعرفة العالم، واختص الباطن بمعرفة الله. ويمثل الباطن بالنسبة للظاهر، ما يمثل القلب بالنسبة للجسد.

- ومن الجدير ذكره - حسب ابن عربي- أن قلب المؤمن وحده، هو مجال المعرفة؛ لأنه يتضمن مجموعة من الأنوار: نور المعرفة، ونور العقل، ونور العلم. إلا أن نور المعرفة هو هدف العارف؛ لأن نور المعرفة كالشمس، ونور العقل كالقمر، والقسم الثالث هو نور العلم، وهو كالكوكب بالنسبة للشمس والقمر، فيتم ستر الهوى بنور المعرفة، وستر الشهوة بنور العقل، وستر الجهل بنور العلم

❖ مراتب العلوم عند ابن عربي

يميز ابن عربي بين ثلاث مراتب للعلوم «علم العقل»: «وهو ما يحصل لك ضرورة، أو عقيب نظر في دليل...ولهذا يقولون في النظر: منه صحيح، و فاسد.»

أما العلم الثاني فهو «علم الأحوال»: «ولا سبيل إليها إلا بالذوق، فلا يقدر عاقل على أن يحدها، ولا يقيم على معرفتها دليلاً البتة. كالعلم بحلاوة العسل، ومرارة الصبر، وما شاكل هذا النوع من العلوم. فهذه علوم من المحال أن يعلمها أحد إلا بأن يتصف بها ويذوقها، وشبَّهها من جنسها في أهل الذوق» الأمر إذن يتعلق بالذوق السليم، لا بالخطأ والصواب، «ولا يجوز إنكار الذوق على من ذاق»

أما العلم الثالث فهو «علم الأسرار»: «وهو العلم الذي فوق طور العقل. وهو نفث روح القدس في الروح، يختص به النبي والولي.» - حسب ابن عربي - هذا الصنف الثالث الذي هو علم الأسرار، العالم به يعلم العلوم كلها، ويستغرقها.

وليس صاحب تلك العلوم (الأخرى) كذلك فلا علم أشرف من هذا العلم المحيط، الحاوي على جميع المعلومات» - وقد أكد ابن عربي على أهمية دور العقل في تحصيل المعرفة، وتراه لا يرفض معرفة الفيلسوف العقلية، ويعطي للحواس والخيال دورين كبيرين في تحصيل المعرفة.

- ومع ذلك تبقى قدرة العقل محدودة وعاجزة عن معرفة الله، لأن هنالك طوراً آخر هو طور ما وراء العقل، الذي يمثل السبيل إلى معرفة الله، ومصدر هذه المعرفة هو القلب، وطريقها الكشف والمشاهدة والتجلي. وبالتالي فإنه حتى الصوفي العارف الواصل الكامل يبقى عاجزاً عن إدراك كنه الذات الإلهية، وغاية العارف هي إدراك تجليات الله بأسمائه وصفاته في جواهر الوجود.

- وابن عربي يعتبر النظر العقلي ضرورياً للحياة، لكن المعرفة المحصلة بالعقل هي معرفة محدودة. ذلك أن للعقل حدوداً لا يستطيع تجاوزها، تخص معرفة الذات الإلهية. وعليه فإن للمعرفة حدوداً لا يتجاوزها العقل. ومع ذلك فإن آفاق المعرفة تبقى مفتوحة إلى ما لا نهاية، ويجب على الإنسان أن يحاول ارتيادها. لكن الأهمية القصوى في تحصيل المعرفة هي للكشف الصوفي.

❖ صعوبة تحديد معاني كلام ابن عربي:

على أن ابن عربي يتعمد دائما إخفاء حقيقة مذهبه، ونص على ذلك بوضوح في مقدمة الفتوحات. وهذه أول صعوبة يقابلها من يحاول خوض غمار فكر ابن عربي، والذي يتقن في الغموض باستخدام كل وسيلة ممكنة، من اللغة الرمزية، إلى تبديد آرائه وتفريقها إلى استخدام لغة اصطلاحية خاصة إلى غير ذلك من وسائل. ولهذا من الصعب تحديد مذهبه في المعرفة بشكل دقيق وقاطع.